

الاستلزام الحواري في محاورات مالك بن نبي وماسينيون في كتاب "العفن"

The Conversational Implicature In The Dialogues Of MALEK BENNABI And
LOUIS MASSIGNON Through The Book « the mold »

نسيمة نابي

جومانة باهي *

جامعة العربي بن مهيدي-ام البواقي (الجزائر) جامعة العربي بن مهيدي-ام البواقي (الجزائر)

nacimana@gmail.combahi.djoumana@univ-oeb.dz

مخبر تعليمية اللغة العربية والنص الأدبي في نظام التعليم الجزائري الواقع والمأمول (الجزائر)

تاريخ الإرسال: 2005/01/02	تاريخ التقييم: 2025/05/24	تاريخ القبول: 2025/06/04
---------------------------	---------------------------	--------------------------

الملخص

تناولت الدراسة تحليل الحوارات بين مالك بن نبي والمستشرق الفرنسي لويس ماسينيون، مع التركيز على استغلال بن نبي للاستلزام الحواري لانتقاد الاستعمار وإبراز الفروق الجوهرية بين رؤيته التحررية ورؤية ماسينيون الاستشراقية. أظهرت الدراسة كيف استخدم بن نبي الحوار كأداة للكشف عن الأجندات الاستعمارية الخفية، موضحة أن هذه المحاورات كانت ساحة مواجهة بين حضارتين مختلفتين: إحداهما تسعى للهيمنة الفكرية، والأخرى تطمح إلى التحرر. كما تم التركيز على تأثير الفروقات اللغوية والثقافية في تعميق هذه الفروق. خلصت الدراسة إلى أن بن نبي نجح في توظيف الاستلزام الحواري لرفع الوعي بضرورة استعادة الهوية الحضارية ومواجهة الاستعمار الفكري.

كلمات مفتاحية: الاستلزام الحواري؛ مالك بن نبي؛ ماسينيون؛ كتاب العفن.

Abstract:

The study analyzes the dialogues between Malik Bennabi and the French Orientalist Louis Massignon, focusing on Bennabi's exploitation of Conversational implicature to criticize colonialism and highlight the fundamental differences between his liberationist vision and Massignon's Orientalist perspective. The study

demonstrates how Bennabi used dialogue as a tool to expose hidden colonial agendas, showing that these conversations were a battleground between two different civilizations: one seeking intellectual dominance and the other striving for liberation. The impact of linguistic and cultural differences in deepening these divisions is also emphasized. The study concludes that Bennabi successfully employed dialectical implication to raise awareness of the need to restore cultural identity and confront intellectual colonialism.

Keywords: Conversational implicature; Malek Bennabi; Louis Massignon; *The Book of Mold (Kitab al-'Ufn)*.

* المؤلف المراسل:

1. مقدمة:

يُعد مفهوم الاستلزام الحوارية من أبرز الأدوات اللغوية التي تُستخدم لفهم المعاني الضمنية التي تتجاوز الكلمات المباشرة، وهو يرتبط ارتباطاً وثيقاً بنظرية "مبدأ التعاون" لبول جرايس. تساعد هذه النظرية في كشف الرسائل الخفية والنوايا المضمرة في الحوارات، مما يمنح بعداً أعمق لتحليل العلاقات اللغوية بين المتحاورين.

في السياق العربي والإسلامي، كان الحوار دائماً وسيلة محورية للتفاعل الثقافي والفكري، حيث لعب دوراً رئيسياً في تعزيز الفهم المتبادل وتأكيد الهوية الثقافية في مواجهة التحديات الفكرية. يتجلى هذا بوضوح في محاورات المفكر مالك بن نبي مع المستشرق الفرنسي لويس ماسينيون، كما وردت في كتاب "العفن". لم تكن هذه المحاورات مجرد تبادل للأفكار، بل كانت تجسيدا لصراع حضاري بين الفكر الإسلامي ورؤية المستشرق، خاصة في ظل الاستعمار الفرنسي للجزائر.

عاش مالك بن نبي في فترة كان فيها الاحتلال الفرنسي يسعى لتفكيك الهوية الثقافية والدينية للجزائريين. وفي هذا السياق، استخدم بن نبي الحوار كأداة لمقاومة الهيمنة الفكرية

والثقافية التي قد تحملها أطروحات ماسينيون. على الرغم من أن الحوار كان يبدو ظاهريًا نقاشًا فكريًا، إلا أنه في العمق كان يعبر عن توتر ثقافي واستعماري عميق.

من خلال تحليل هذه المحاورات باستخدام مفهوم الاستلزام الحواري، يمكن كشف الرسائل الضمنية التي تعكس مواقف الطرفين. فقد استغل بن نبي هذه الأداة لإبراز الاختلافات الفكرية بينه وبين ماسينيون، مع تسليط الضوء على الطابع الخفي للمواقف الاستشراقية التي قد تتضمن أهدافًا استعمارية غير معلنة. بذلك، أصبح الاستلزام الحواري وسيلة فعالة لفهم الأبعاد السياسية والثقافية التي لم تُفصح عنها الكلمات بشكل مباشر، لكنها عكست صراعًا فكريًا عميقًا بين المستعمر والمثقف المقاوم.

ومن هنا تنبثق الإشكالية التالية: كيف وظّف مالك بن نبي الاستلزام الحواري في محاوراته مع ماسينيون؟ وما هي الرسائل الضمنية التي يمكن استنتاجها من خلال هذه الحوارات في ظل السياق الاستعماري الذي عاشت فيه الجزائر؟
أهداف الدراسة: تتمثل أهداف هذه الدراسة فيما يلي:

- تسليط الضوء على كيفية استخدام بن نبي وماسينيون للاستلزام الحواري كوسيلة للتعبير عن رؤاهما الفكرية المتباينة، وتجسيد الاستلزام الحواري كأداة للتواصل والمقاومة الفكرية في ظل هذا السياق التاريخي المعقد.
- إبراز مفهوم الاستلزام الحواري وأهميته كأداة لتحليل المعاني الضمنية في النصوص الفكرية.
- استكشاف كيفية توظيفه لفهم الرسائل الضمنية في الحوارات الثقافية والفكرية.
- دراسة دور الاستلزام الحواري في الكشف عن الأفكار والتوجهات التي لا تُصرح به النصوص بشكل مباشر.
- تقديم نماذج لتحليل النصوص التي تعتمد على المعاني الضمنية في التعبير عن الأفكار.

2. الإطار النظري للاستلزام الحواري

1.2 نشأة الاستلزام الحواري:

يُعد بول جرایس من أبرز الفلاسفة في تحليل الخطاب، وقد قدّم مفهوم الاستلزام الحواري في محاضراته بجامعة هارفارد عام 1967 بعنوان "المنطق والتخاطب". ركّز على الأبعاد الضمنية في التواصل، مميّزًا بين الدلالة الطبيعية (علاقة مباشرة بين الشيء ومعناه، مثل الدخان الذي يدل على النار) والدلالة غير الطبيعية التي تعتمد على السياق والعلاقة بين المتحدث والمستمع. في بحثه عام 1975 "المنطق والحوار"، طرح جرایس مبدأ التعاون، الذي يفترض أن المتحاورين يتعاونون ضمنيًا لتحقيق الفهم المشترك، معتمدين على قواعد غير مكتوبة تسهّل التفاهم. أكد جرایس أن التواصل لا يقتصر على المعنى الحرفي للكلمات، بل يشمل المعاني الضمنية التي تتضح من السياق. كما قدّم مفهوم الاستلزام الخطابي الذي يُبرز الرسائل الضمنية وراء الكلمات. استمر جرایس في تطوير أفكاره من خلال بحثين موسّعين نُشرا في عامي 1978 و1981، ليرسّخ مكانته كمرجع أساسي في دراسة آليات التواصل البشري،¹ ناقش فيهما بمزيد من التفصيل كيفية إنتاج وتأويل الخطاب. ركز في هذين البحثين على الطبيعة غير المباشرة للتواصل اللغوي، وكيف أن المتحدثين غالبًا ما يقولون ما يصدقون، ولكنهم في الوقت نفسه يلمحون إلى معانٍ أعمق مما يُقال مباشرة. تعتمد هذه المعاني المستلزمة على فهم السياق ومراعاة التفاعل الاجتماعي بين المتحدثين.

الجديد الذي أضافه جرایس في هذه الأبحاث هو توضيح أن الحوار ليس مجرد عملية لنقل المعلومات، بل هو تفاعل معقّد يتطلب من المشاركين فهمًا ضمنيًا للمعاني المخفية وراء الكلمات. هذا الفهم يعتمد على ما يسميه جرایس بـ "الاستلزام الحواري"، وهو المعنى الذي يتم استنتاجه من خلال ما يقوله المتحدث، حتى وإن لم يتم التصريح به صراحةً. ومع توسّعه في هذه الفكرة، قدّم جرایس أسسًا لفهم أعمق للتواصل البشري، حيث يتجاوز الحوار المعاني الحرفية ليصل إلى طبقات من الدلالات غير المباشرة التي تتشكل بفعل السياق الاجتماعي والثقافي. ومن الملاحظ أنه شكلت أعمال جرایس نقطة تحول في تحليل الخطاب وفهم الديناميات الكامنة في المحادثات اليومية، مما جعل من الاستلزام الحواري أداة مهمة لفهم

التواصل الإنساني يعمق يتجاوز الكلمات الظاهرة إلى المعاني المخفية التي تعتمد على السياق والإشارات الضمنية.

"تتمثل الفكرة الأساسية في مفهوم "حكم المحادثة" في أن المتخاطبين عندما يتحاوران، إنما يقبلان ويتبعان عددا معينا من القواعد الضمنية اللازمة، لاشتغال التواصل، والمبدأ الأساسي هو: مبدأ التعاون".²

ويتمثل مفهوم نظرية جرايس من خلال "أن الناس في حواراتهم قد يقولون ما يصدقون، ويصدقون أكثر مما يقولون وقد يصدقون عكس ما يقولون".³ حيث يلاحظ أنه عكس نظرية جرايس في التواصل الفكرة المعقدة أن الحوار البشري يتجاوز حدود التعبير اللفظي المباشر. كما ينطلق جرايس من فكرة أن جمل اللغة تدل في أغلبها على معان صريحة، وأخرى ضمنية تتحدد دلالتها داخل السياق الذي وردت فيه هذه الظاهرة سماها جرايس الاستلزام الحواري (نظرية التخاطب أو الاقتضاء).⁴ فيركز في دراسته على كيفية فهم اللغة كأداة للتواصل البشري، حيث يوضح أن الجمل ليست مجرد تعبيرات سطحية تحمل معاني صريحة فحسب، بل تحتوي أيضاً على معاني ضمنية تتشكل في سياقات معينة. يُعبر عن هذا المفهوم من خلال الاستلزام الحواري، الذي يشير إلى القدرة على استنتاج المعاني الخفية أو غير المُصرَّح بها بناءً على السياق الذي تُستخدم فيه اللغة.

2.2 مفهوم الاستلزام الحواري وشروطه:

الاستلزام الحواري هو فرع من فروع التداولية، وهو تخصص لسانی حديث، يدرس كيفية استخدام الأدلة اللغوية في مخاطبة الناس وكيفية تأويلهم لتلك الخطابات والأحاديث. إذ تستخدم اللغة بجانب السمة المعلوماتية للتواصل، باعتبارها ظاهرة خطابية وتواصلية واجتماعية في الوقت نفسه.⁵

يعتبر الاستلزام الحواري (Conversational Implicature) من أهم المفاهيم التي تقوم عليها التداوليات (Pragmatics) وعلى الرغم من وجود تقارب بين هذين المفهومين، فإن هناك فوارق حاسمة دفعت الفيلسوف الأمريكي بول جرايس (Paule Grice)، إلى وضع هذا المفهوم، لاشتقاق مصطلح جديد من المصدر (implicate) نفسه، وتخصيص عملية

الاستدلال التي تتم في التداول اللغوي باسم (implicature) ، تمييزاً لها عن (implication) المتعارف عليها.⁶

ويعرف الاستلزام الحواري بأنه: عمل المعنى، أو لزوم شيء عن طريق قول شيء آخر، أو قل إنه شيء يعنيه المتكلم ويوحى به ويقترحه، ولا يكون جزءاً مما تعنيه الجملة حرفياً⁷. يعكس هذا التعريف عمق التعقيد في كيفية إدراك المعاني ضمن الحوار، ويشير إلى أن المتحدث قد يستخدم تعبيراً معيناً يحمل معانٍ أعمق أو ضمنية لا تُقال بشكل مباشر. إذ يعتمد الاستلزام الحواري على قدرة المتلقي على استنتاج المعاني الخفية من خلال السياق والكلمات المستخدمة. ويرتبط الاستلزام الحواري بنظرية الأفعال اللغوية عند أوستين وسيرل، كما يتعلق أكثر بالدلالات البلاغية الضمنية التي يستلزمها السياق الكلامي. ينقسم المعنى الضمني بدوره إلى قسمين: معنى عرفي يتعلق بالاقتضاء (الإحالة) والاستلزام المنطقي (الدلالة المنطقية)، ومعنى حوارى ينقسم إلى معنى خاص (الاستلزام الحواري)، ومعنى معمم. وتنتج عن كل هذا أنماط من الأفعال حسب أوستين، وهي: فعل التلفظ، والفعل القضوي، والفعل الإنجازي، والفعل التأثيري. يشمل فعل التلفظ الفعل الصوتي والفعل التركيبي. أما الفعل القضوي، فيتفرع إلى الفعل الإحالي والفعل الحملّي. أما الفعلان الإنجازي والتأثيري، فلا يختلفان في مقترح سيرل عنهما في مقترح أوستين اختلافاً كبيراً.⁸

يشترط جرایس لتحقيق الاستلزام الحواري أن يأخذ المتكلم بعين الاعتبار المعنى الحرفي للكلمات المستعملة، وتعريف العبارات الإحالية، إضافة إلى السياق اللغوي وغير اللغوي للخطاب، وعناصر أخرى تتصل بالخلفية المعرفية. بالإضافة إلى أنه يجب على المساهمين في الحوار أن يكونوا على علم بالمعطيات الأنفة الذكر، وأن يصدروا أثناء عملية التحوار عن افتراض هذه المعطيات.⁹

ويرى بعض الأصوليين أن "اللغة العربية من حيث هي ألفاظ دالة على معان: أحدهما من جهة كونها ألفاظاً وعبارات مطلقة دالة على معان مطلقة، وهي الدلالة الأصلية. والثاني من جهة كونها ألفاظاً وعبارات مقيدة دالة على معان خادمة، وهي الدلالة التابعة".¹⁰ فهناك دلالة صريحة يفهمها من الظاهر، أيّاً كان الأسلوب الدال عليها، ودلالة أخرى هي دلالة المفهوم أو المعنى الضمني الذي يختفي وراء اللفظ. فالصريح، كما تقدم، هو المعنى

الأصلي (الحرفي) للمدلول عليه بصيغة النص، وغير الصريح (المفهوم) هو الأقسام الثلاثة المتقدمة: "دلالة النص وإشارته واقتضائه. وعلى المكلف أن يعمل بكل ما يدل عليه النص الشرعي أو القانوني بأي طريق من طرق الدلالة". ولهذا قال الأصوليون: "يجب العمل بما تدل عليه عبارة النص وما تدل عليه روحه ومعقولة، وهذه الطرق بعضها أقوى دلالة من بعض، ويظهر هذا التفاوت عند التعارض¹¹".

- الفرق بين المعنى الحرفي والمعنى المستلزم:

تتكون جملة الاستلزام الحوارية مما يلي:¹²

اللفظ: وهو الكلام المنطوق به في الجملة.

المعنى الحرفي: وهو المعنى المعجمي للفظ، وليس هو مقصود المتكلم في جملة الاستلزام الحوارية.

المعنى المعدول عنه: وهو المعنى المباشر الذي عدلت عنه الجملة بغية إثرائه وإكسابه دلالات إضافية.

المعنى المستلزم: وهو المعنى المستلزم من السياق، وهو مقصود المتكلم، ويتكون من المعنى المعدول عنه وما أضافه المعنى الحرفي من دلالات.

يمثل الفرق بين المعنى الحرفي والمعنى المستلزم محوراً أساسياً في فهم تفاعل المتحدثين في الحوار، حيث يعتمد التواصل على مبدأ التعاون وفقاً لنظرية بول جرايس. يشير المعنى الحرفي إلى الدلالة الظاهرة للكلمات كما تنص عليها قواعد اللغة والمعجم، ويمكن فهمه دون تفسير إضافي. أما المعنى المستلزم فيظهر من خلال استخدام الكلمات في سياق معين لإيصال معاني غير مباشرة تعتمد على الظروف المحيطة والعلاقة بين المتحاورين. يتطلب هذا النوع من المعاني توافقاً ضمنيّاً بين المتحدث والمستمع، حيث يفهم المستمع الرسائل الضمنية بناءً على السياق والمعرفة المشتركة. يُظهر جرايس أن المتحدثين غالباً ما يعنون أكثر مما يقولون صراحة، مما يجعل فهم المعنى المستلزم أكثر تعقيداً ويحتاج إلى مهارات تحليلية للسياق والعلاقات الاجتماعية.¹³

3. تحليل محاورات مالك بن نبي وما سينيون في كتاب "العفن":

1.3. تقديم المحاورات:

- نبذة عن كتاب "العفن":

يُعد كتاب "العفن" للمفكر الجزائري مالك بن نبي جزءاً مهماً من مشروعه الفكري حول النهضة الحضارية، حيث كتبه سنة 1951 خلال فترة الاستعمار الفرنسي للجزائر، وقام بترجمته نور الدين خندودي.¹⁴ يعكس الكتاب رؤية نقدية عميقة للأوضاع الاجتماعية والثقافية تحت وطأة الاستعمار، مع التركيز على أزمات المجتمع الجزائري وتأثير الاستعمار في إحداث الانحلال الثقافي والاجتماعي. يتميز "العفن" بطابعه الصريح الذي يُبرز شجاعة بن نبي في تناول القضايا بشكل مباشر لتحفيز الوعي المجتمعي. يؤكد الكاتب أهمية النقد الذاتي كخطوة أساسية للنهضة، داعياً إلى تقييم دقيق للواقع ووضع رؤية واضحة للتحديات. يعرض بن نبي في الكتاب رؤيته للنهضة كعملية شاملة تبدأ بفهم الجذور الثقافية والاجتماعية للمجتمع. يمثل "العفن" دعوة للتفكير النقدي وأداة لإلهام المثقفين والباحثين في مواجهة الاستعمار والتأسيس للتغيير الإيجابي.

- دور ماسينيون كمستشرق في الحوار مع المثقفين الجزائريين:

يُعتبر لويس ماسينيون (1883-1962)¹⁵ أحد أبرز المستشرقين الذين أسهموا في بناء جسور الحوار بين الثقافات، خاصة في سياق الاستعمار الفرنسي للجزائر. كان ماسينيون يدرك تمامًا أن اللقاء والتواصل مع الآخر هو السبيل الفعال لردم الفجوات بين البشر، ولذلك سعى جاهداً لتقريب وجهات النظر بين المستعمرين والمستعمرين. يُعد لويس ماسينيون من أبرز المستشرقين الفرنسيين الذين وضعوا أنفسهم في خدمة الاستعمار، حيث اتسمت مواقفه بالحقده على الإسلام وأهله، وفقاً لشهادات معاصريه. انتقده الإمام البشير الإبراهيمي، واصفاً إياه بـ "الشیطان المريد"، مؤكداً وعيه بمخططات الاستعمار وعملائه. عُرف ماسينيون بعدائه لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين، كما يظهر في حادثة مزقه رسالة الباحث إسماعيل العربي لمجرد انتمائه للجمعية. كذلك أظهر تعصبه في رفضه الإشراف على أطروحة الشاعر العراقي محمد مهدي البصير بسبب دعمه لثورة 1920 ضد الإنجليز. رغم محاولات البعض تصوير ماسينيون كصديق للعرب، فإن أئمة الجزائر، كالإبراهيمي وعبد الحميد بن

باديس، كانوا الأكثر إدراكًا لحقيقته ومخططاته، مما جعلهم رموزًا للمقاومة الفكرية ضد الاستعمار.¹⁶

2.3. تحليل الاستلزام الحواري في المحاورات:

- السياق العام للمحاورات:

في كتابه "العضن"، يقدم مالك بن نبي نقدًا عميقًا للممارسات الاستعمارية التي استهدفت هوية الجزائر وتطورها الحضاري. يرى أن الاستعمار لم يكن مجرد قوة عسكرية أو سياسية، بل منظومة فكرية تهدف إلى تفكيك قيم المجتمع الجزائري من الداخل من خلال تحريف أولوياته وتزييف وعيه. اعتبر ابن نبي الاستعمار الثقافي أخطر أشكاله، حيث سعى للسيطرة على العقول والقلوب قبل الأرض. ولفت الانتباه إلى دور المستشرقين، مثل لويس ماسينيون، في محاولة اختراق الفكر العربي والإسلامي لنشر الانقسام وإضعاف الهوية الإسلامية.

ففي "العضن"، يروي مالك بن نبي كيف تصدى لمحاولات المستشرق الفرنسي لويس ماسينيون، الذي سعى لنشر أفكار مغلوطة عن الإسلام وإقناع النخب الجزائرية بضرورة الانسلاخ عن هويتها الإسلامية للاندماج في الحضارة الغربية. رغم محاولات الإغراء والترغيب، رفض ابن نبي هذه الأفكار التدميرية، مستندًا إلى وعيه الحضاري الراسخ وإيمانه بقوة الفكر الإسلامي، مما مكّنه من مقاومة هذه المخططات بثبات وعزيمة.

في هذا السياق، يحكي ابن نبي عن قصة رمزية، حينما قال مازحًا على لسان شخص شبهه بالملك: "أدخلوا أيها السادة، أنا أعلم أنكم تعبتم كثيرًا في الحياة الدنيا، غير أن فرشًا ناعمة تنتظركم".¹⁷ من خلال هذه القصة، كان ابن نبي يريد أن يوضح فكرة عميقة، وهي أن الشعب الجزائري قد أنهكه الاستعمار وواجه ضغوطًا كبيرة، لكن عليه أن يواصل كفاحه لكي يصل إلى "الفرش الناعمة" التي تمثل الراحة والاستقلال والتحرر. هذه الراحة لن تأتي إلا بعد

العمل الجاد والكفاح ضد الأفكار الاستعمارية التي حاولت أن تسلخ الشعب عن جذوره وهويته الحضارية.

لقد كان ماسينيون، كما يراه ابن نبي، رمزاً للواجهة الفكرية التي استخدمتها فرنسا لتشويه الوعي الجزائري عبر استهداف الفكر الإسلامي وإثارة النزاعات بين الشباب. تصدى ابن نبي لمحاولات ماسينيون بكل حزم، سواء بالكتابة أو النقاشات العلنية. كما واجه تدخلات ماسينيون في حياته المهنية، حيث حرّمه من فرص دراسية ووظيفية، وأحبط محاولته للسفر إلى الحجاز، ما دفع ابن نبي للبحث عن بدائل لمواجهة هذه العراقيل.

ما يميز كتاب "العفن" ليس فقط النقد الذي يوجهه ابن نبي إلى الاستعمار والمستشرقين مثل ماسينيون، بل أيضاً التحليل العميق الذي يقدمه عن النفسية الاستعمارية وكيفية تشكيلها، وعن الأسباب التي جعلت بعض النخب الجزائرية تتماهى مع الفكر الاستعماري. يشير ابن نبي إلى أن هناك فئة من الجزائريين وقعت في فخ الاستعمار الثقافي، حيث رأت في الحضارة الفرنسية نموذجاً يجب اتباعه دون نقد أو تمحيص. هؤلاء المثقفون، الذين أطلق عليهم ابن نبي "الأنديجينا"¹⁸، كانوا في نظره نتيجة مباشرة لسياسات الاستعمار التي هدفت إلى خلق طبقة من النخب المرتبطة بالمستعمر وتابعة له فكرياً وثقافياً. من خلال تحليل هذه الطبقة، يكشف ابن نبي عن كيفية تأثير الاستعمار في تفتيت الروابط الاجتماعية والنفسية داخل المجتمع الجزائري، وعن الطرق التي استخدمها المستعمر لتحويل بعض النخب إلى أدوات تخدم أهدافه.

لقد كان ابن نبي دائماً على قناعة بأن الحل لا يكمن في مجرد التخلص من الاستعمار العسكري، بل في التخلص من الاستعمار الفكري والثقافي الذي زرعه المستعمر في العقول. ولهذا السبب، كان ينادي بضرورة استعادة الأمة لأصالتها وهويتها الحضارية، وإعادة ترتيب أولوياتها بما يتوافق مع سنن التطور الحقيقي التي تحترم الإنسان وتقدره.

- نماذج من المحاورات:

في إطار محاوراته مع المستشرق الفرنسي لويس ماسينيون، أظهر مالك بن نبي عمقاً فكرياً وقدرة على توظيف الحوار لطرح قضايا أبعد من الظاهر. فقد كان بن نبي يتحدث عن قضايا الاستعمار وتأثيره على الهوية الجزائرية، ولكنه كان يتجاوز هذا الطرح ليزرع بذور الوعي

بمسؤوليات المجتمع الجزائري تجاه استعادة هويته وثقافته. على سبيل المثال، حينما أشار إلى مشاعر الفقد والخيانة التي لاحظها في بعض النخب الجزائرية، لم يكن يكتفي بمجرد النقد، بل كان يحث على وعي أعمق بالأبعاد التاريخية والثقافية لهذه الخيانة، مستهزئاً المجتمع للنهوض والتغيير، "وهكذا فقد كانت الذبابة الصغيرة تفيض حيوية ولكنها غير واعية للأخطار، تخرق كل مرة بجناحيها البريثين نسيج بيت العنكبوت"¹⁹، فتشبيه الكاتب لنفسه بالذبابة يستلزم أنه شخصية متمردة وغير مرغوبة، تحاول كسر النظام السائد الذي يفرضه ماسينيون وشبكتة، و"العنكبوت"، هنا ليست مجرد حشرة، بل ترمز إلى شخصية ماسينيون الذي يحيك خيوطاً معقدة للتلاعب بالطلبة المثقفين من شمال إفريقيا. يستلزم الوصف أن ماسينيون يتحكم خفية بالمشهد السياسي والثقافي المحيط بالشخصيات المذكورة.

ومن أبرز نماذج هذه المحاورات، تلك اللحظة التي أشار فيها إلى أول عمل سياسي بحجم كبير يسجله التاريخ في الجزائر، حيث كان الشعب حاضراً بكل قوته حينما دُغدغ شعوره وشرفه الوطني. هنا، استخدم بن نبى هذا الحدث ليس فقط للإشادة، بل للتأكيد على أن الشعب قادر على الفعل حينما يتم توجيه حواسه الوطنية بشكل صحيح. "أنه كان أول عمل سياسي بهذا الحجم يسجل في الجزائر. غير أن القادة كانوا من طينة الرجال الذين يستغلون لصالحهم مثل هذه الظروف النادرة التي تبين كيف يكون الشعب الجزائري حاضراً عندما يدغدغ شعوره وشرفه"²⁰. هذا النمط من الحديث كان جزءاً من استراتيجية بن نبى لتحفيز الوعي الجماعي في مواجهة الاستعمار، مشيراً إلى أن استعادة الهوية ليست مجرد عمل فردي، بل مسؤولية جماعية.

وفي حوار آخر، أثار بن نبى مسألة الوهابية، حيث أكد لماسينيون أن هذه الظاهرة ليست ظاهرة عربية فحسب، بل إسلامية عامة، وشبهها بالبروتستانتية في المسيحية. الأكثر إثارة في هذا الحوار كان إعلانه الصريح بأنه شخصياً وهابي، وهو تصريح موجه باحترام إلى ماسينيون، الذي كان كاثوليكيّاً" لقد أكدت في حضوره أن الوهابية ليست ظاهرة عربية بل ظاهرة إسلامية وأضفت بأنها مسألة شبيهة بالبروتستانتية في المسيحية، علاوة على أنني أنا شخصياً وهابي... إن كل من يدرك أن كلمات مثل هذه توجه باحترام وتقدير لكاثوليكي في

وسط بروتستانتى وإلى كاثوليكي يعمل كذلك مستشارا تقنيا، فلا شك أنه سيحس غضبة ماسينيون الباردة المغلفة بابتسامة".²¹ هنا، تظهر قدرة بن نبي على خوض حوارات فكرية دقيقة مع رموز الاستشراق، حيث كان يعرف كيف يثير الحوارات ويستغلها لإيصال رسائل عميقة تتجاوز حدود الخلاف الديني أو السياسي. لقد كان يدرك تمامًا كيف يستفز ماسينيون بأسلوب دبلوماسي، حينما أشار إلى هذه الفكرة، التي ربما تسببت في شعور ماسينيون بالغضب المكتوم، ولكن هذا الغضب كان مغلفًا بابتسامة باردة.

- الاستلزام الحوارى فى النقد الموجه للاستعمار:

من خلال استغلال الاستلزام الحوارى فى حديثه عن الاستعمار، لم يكن بن نبي يكتفى بنقد الممارسات الاستعمارية الظاهرة، مثل القمع العسكرى أو التهميش السياسى. بل كان يسلط الضوء على العمق الفكرى للاستعمار، ويشير إلى ما هو أخطر: الاستعمار كقوة تفسد المجتمعات من الداخل، مشوهة أولوياتها الفكرية والثقافية. على سبيل المثال، عندما يناقش فساد النخب الجزائرية التي تعاونت مع المستعمر أو تأثرت به، لا يكتفى بن نبي بوصف هذه الخيانة، بل يلمح إلى ما هو أعمق، وهو ضرورة استعادة الوعي الجماعى لمواجهة هذا التعفن الفكرى. الاستلزام الحوارى هنا يتمثل فى أن نقده للنخب ليس مجرد توجيه لوم، بل هو دعوة للجزائريين للبحث عن أولوياتهم الحقيقية وتحرير أنفسهم من التأثير الاستعماري الخفى.

"ماسينيون بومنجل وغيرهما ... لقد احتجت إلى سنين من التجربة المريرة لاستخلاص هذه العلاقة وإدراك مغزى هذا ال "أحدهم" الذى استعمل كمجرد ستار يحجب الصلة الفعلية بين المستعمر والقابل للاستعمار"،²² ففي إشارته إلى أمثال ماسينيون وبومنجل، يوضح بن نبي أن الاستعمار لم يكن مجرد هيمنة ظاهرة، بل عملية تدمير داخلى للمجتمعات المستعمرة من خلال تشويه الوعي الجماعى وإفساد النخب التي تحولت إلى أدوات تخدم أهداف المستعمر. يشير بن نبي ضمناً إلى العلاقة الملتبسة بين "المستعمر" و"القابل للاستعمار"، حيث لا يقتصر الخطر على الاستعمار الخارجى، بل يتجلى فى القابلية الداخلية التي تجعل المجتمع عرضة للتبعية الفكرية والثقافية. نقده للنخب لا يتوقف عند وصف الخيانة، بل يحمل استلزاماً حوارياً يدعو إلى وعى أعمق بتحرير الذات واستعادة الهوية

الوطنية والثقافية. بذلك، تصبح رسالته ليست فقط نقدًا للواقع، بل خطة لتحفيز الوعي الجماعي لمواجهة هذا التعفن الفكري والثقافي.

- الاستلزام الحواري في التحاور مع المستشرقين:

محاورات بن نبي مع المستشرق الفرنسي لويس ماسينيون تُظهر بوضوح كيف يوظف الاستلزام الحواري لتمرير رسائل عميقة خلف قناع الدبلوماسية. فعندما يعترف بن نبي بأنه "وهاي" في سياق الحوار مع ماسينيون، يكون هدفه الظاهري هو تقديم توضيح فكري. لكن على مستوى أعمق، كان يعكس موقفًا نقديًا تجاه الاستشراق الذي يحاول تقديم الإسلام في قوالب محددة. بن نبي يدرك أن ماسينيون، كمستشرق كاثوليكي، يحمل أفكارًا نمطية حول الوهابية والإسلام، وبالتالي يستخدم هذا التصريح ليس لاستفزاز ماسينيون فحسب، بل لتوجيه رسالة ضمنية عن رفض الهيمنة الفكرية الغربية على الإسلام. هنا، يبرز الاستلزام الحواري كوسيلة لإظهار أن الفكر الإسلامي قادر على مقاومة هذه التأويلات الاستشراقية.

- الاستلزام الحواري في الدعوة إلى استعادة الهوية الحضارية:

بعدما ألقى مالك بن نبي محاضراته "لماذا نحن عرب؟ في جمعية الطلبة، توجه إليه صديقه حمودة بن ساعي قائلا له: "إن ماسينيون يرغب في لقائك"، هذا الاسم الذي قال عنه بن نبي "لم أكن أدري ماذا سيعني هذا الاسم الذي نطق به للتو صديقي محمد بن ساعي من غير اكتراث، طوال حياتي، وكيف سيؤثر في مصيري ومصير عائلتي"²³. ليكون بهذا أول حوار لملك بن نبي مع المستشرق الفرنسي ماسينيون.

ففي العديد من النقاشات التي يعرضها بن نبي في "العفن"، يستخدم الاستلزام الحواري لدفع المجتمع الجزائري نحو استعادة هويته الحضارية. فعندما يتحدث عن أن الشعب الجزائري كان حاضراً بقوة عندما "دغدغ شعوره وشرفه"²⁴ فإن هذا التوصيف يحمل معنى ضمنياً أكبر من مجرد الإشادة بالمواقف الوطنية. بن نبي يوحي بأن الشعب يمكن أن يعود إلى هذه الروح النضالية إذا تم توجيهه وعيه بشكل صحيح. أي أن المجتمع بحاجة إلى من يوقظ فيه هذه المشاعر الكامنة، وأن النهضة لا تأتي فقط من المواجهة العسكرية أو

السياسية، بل من إعادة تفعيل هذه القوى الداخلية التي تم قمعها خلال حقبة الاستعمار، ويقول الكاتب حين ألقى محاضراته "لماذا نحن عرب"²⁵ كانت أطروحة مالك بن نبي معارضة لسياسات ماسينيون التي تهدف إلى البربرية والتنصير والفرنسة، ويعتبر الكاتب أن تلك المحاضرة كانت موجّهة ضد محاولات تزوير الهوية العربية الإسلامية، مثلما يظهر في قوله: "المهم حالياً هو أن أطروحتي تقع على طرفي نقيض من آراء ماسينيون البربرية واللاتينية والتنصيرية والمفرنسة".²⁶

- الاستلزام الحواري في نقد النخب:

بن نبي أيضاً يوجّه نقداً خاصاً للنخب الجزائرية التي خانت الأمانة الوطنية أو انجرت خلف المستعمر. لكنه لا يصحّ بذلك بشكل مباشر دائماً، بل يعتمد على الاستلزام الحواري لإيصال الفكرة. في كثير من الأحيان، ينتقد بن نبي هذه النخب بأسلوب يوحي بأن المشكلة ليست فقط في أفعالهم، بل في نظام القيم المشوّه الذي تم فرضه من قبل الاستعمار. النخبة التي تخدم المستعمر أو تقبل أفكاره تتعرض لانتقاد مباشر، ولكن الرسالة الضمنية هي أن هذه النخب ما كانت لتصل إلى هذه الحال لولا التعفن الذي سببه الاستعمار في الهيكل الاجتماعي والفكري.

حيث أن الكاتب لكاتب يذكر كيف بدأ بعض المثقفين من الأهالي (الجزائريين) يسلكون مسارات خيانة فكرية، مثل شريف مشيري الذي دخل السياسة واعتنق المنهج الاستعماري خدمة لمصالحه الشخصية، "ويدعى شريف مشيري قد دشّن مسلسل الخيانة الفكرية"،²⁷ مما يدل على انحراف هذه النخب عن المبادئ الوطنية في سبيل المكاسب الخاصة.

يتم الإشارة إلى أن بعض الأفراد من النخب، مثل إيبعيزن الذي تنصروحسين لحقّق الذي تفرنس "وما إن أصبح حسين لحقّق (ابن الساكنة) حتى تنصرو... وبدأت استشرافات السيادة تتكشف"،²⁸ وهذا يعكس نقداً لافتاً لما كان يُعتبر "النجاح" في ظل النظام

الاستعماري، حيث كان يتم التقرب من الاستعمار عبر اعتناق ثقافته أو أفكاره، حتى وإن كانت هذه الأفعال تنم عن خيانة لهوية وثقافة الشعوب المستعمرة.

كما أن نقد النخب لا يقتصر على هؤلاء الذين تقربوا من الاستعمار فحسب، بل يمتد إلى أولئك الذين دعموا استراتيجياته مثل ماسينيون الذي كان يتبنى سياسات التنصير والفرنسة. يتم تصويره هنا كـ "عنكبوت" يتلاعب بالخيوط خلف الستار ليدير الشؤون الاستعمارية، وهو نقد لدوره في تعزيز سياسات استعمارية خفية.

هناك أيضاً انتقاد للنخب التي كانت تعيش بعيداً عن واقع الشعب، مثل تلك التي كانت تشارك في الأندية المسيحية في باريس وتعتبر نفسها منفصلة عن معاناة الناس في مستعمراتها. وهذا يعكس الفجوة بين النخب وحقيقة معاناة الشعب المستعمر، التي كانت تمثل حالة من "التخلي عن الوطنية" أو "الانفصال عن الواقع".

4. خاتمة:

تُظهر دراسة الاستلزام الحوارية في محاورات مالك بن نبي مع لويس ماسينيون أهمية هذا المفهوم في تحليل الخطاب وفهم أبعاده الضمنية. من خلال استغلاله لمبدأ التعاون والمعاني المستلزمة، نجح ابن نبي في تجاوز المظاهر السطحية للنقاشات ليكشف عن الجوانب الفكرية والاستراتيجية للممارسات الاستعمارية. عالج قضايا الهوية والوعي بأسلوب نقدي عميق يبرز قدرته على تحويل الحوار إلى وسيلة لنقل رؤى حضارية تحث على التغيير. بهذا، يظل الاستلزام الحوارية أداة قوية لتحليل الخطاب الإنساني، وخاصة في سياقات الصراع الثقافي والحضاري، مما يتيح فهماً أعمق لتحديات الاستعمار الفكري وكيفية مواجهتها.

ومن أهم النتائج التي توصلت إليها الدراسة:

- القدرة على كشف الأبعاد الضمنية للخطاب الاستعماري حيث استعمل مالك بن نبي الاستلزام الحوارية لتجاوز السطحية والكشف عن المغزى الحقيقي للخطاب الاستعماري.

- ركزت محاورات بن نبي على أهمية بناء وعي فكري قادر على مواجهة التحديات الثقافية والاستعمارية.
- أثبتت الدراسة أن الحوار ليس مجرد تبادل أفكار بل أداة استراتيجية لفهم وإعادة تشكيل القضايا الثقافية والحضارية.
- قدمت الدراسة نموذجًا تطبيقيًا للاستلزام الحواري في سياق حضاري وثقافي، مما يثري مجال تحليل الخطاب.

الهوامش:

¹ محمود أحمد نحلة، أفاق جديدة في البحث اللساني المعاصر، دار المعرفة الجامعية، مصر، 2002، ص 32.

² فليب بلانشيه، التداولية من أوستن إلى غوفمان، تر: صابر الحباشة، (2007)، دار الحوار للنشر والتوزيع، سوريا، 2007، ص 87.

³ محمود أحمد نحلة، أفاق جديدة في البحث اللساني المعاصر، ص 33.

⁴ ليلي كادة، ظاهرة الاستلزام الحواري في التراث اللساني العربي، (د.ت)، ص 105.

⁵ فيليب بلانشيه، التداولية من أوستن إلى غوفمان، ص 17.

⁶ عياشي أدواردي، الاستلزام الحواري في التداول اللساني، دار الأمان، الرباط، 2011، ص 47.

⁷ صلاح إسماعيل عبد الحق، نظرية المعنى في فلسفة بول جرايس، الدار المصرية السعودية، القاهرة، 2005، ص 78.

⁸ جميل حمداوي، من الحجاج إلى البلاغة الجديدة، أفريقيا الشرق، المغرب، 2014، ص 96-97.

⁹ عياشي أدراوي، الاستلزام الحواري في التداول اللساني، ص 104.

¹⁰ الشاطي، تحقيق الشيخ عبد الله دراز، الموافقات في أصول الشريعة، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة، (د.س)، ص 66-67.

¹¹ هادي شندوخ حميد، الاستلزام آلية تداولية-قراءة في النص القرآني-، قسم اللغة العربية، كلية الآداب، جامعة ذي قار، (د.س)، ص 5.

¹² عبد المنعم عبد الله عبد المنعم السيوطي، جماليات الاستلزام الحوارية في القرآن الكريم-دراسة أسلوبية تداولية-، دراسة أسلوبية تداولية، أطروحة دكتوراه، كلية الآداب جامعة عين شمس، 2020، ص 55.

¹³ كلارا زجر جاسم، الاستلزام الحوارية في تفسير الميزان للطباطبائي، رسالة ماجستير، كلية التربية للعلوم الإنسانية جامعة المثنى، العراق، 2022، ص 11-12-13.

¹⁴ مراد بوفولة، التربية الاجتماعية وقيم المواطنة عند مالك بن نبي، أطروحة دكتوراه، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة 08 ماي 1945، الجزائر، 2024، ص 65.

¹⁵ عبد الرحمان بدوي، موسوعة المستشرقين، (1993)، دار العلم والملايين، بيروت، لبنان، ص: 529-535.

¹⁶ محمد الهادي الحسني، (2021)، لويس ماسينيون: العدو الألد،

<https://www.echoroukonline.com/%D9%84%D9%88%D9%8A%D8%B3-%D9%85%D8%A7%D8%B3%D9%8A%D9%86%D9%8A%D9%88%D9%86-%D8%A7%D9%84%D8%B9%D8%AF%D9%88%D9%91%D9%8F-%D8%A7%D9%84%D8%A3%D9%84%D8%AF%D9%91>

(consulté le 15/11/2024)

¹⁷ مالك بن نبي، العفن: مذكرات الجزء الأول (1932-1940)، تر: نور الدين خندودي، دار الأمة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2007، ص 68.

¹⁸ المرجع السابق، ص 22.

¹⁹ المرجع السابق، ص 33.

²⁰ المرجع السابق، ص 88.

²¹ المرجع السابق، ص 100.

²² المرجع السابق، ص 22.

²³ المرجع السابق، ص 22.

²⁴ المرجع السابق، ص 88.

²⁵ المرجع السابق، ص 22.

²⁶ المرجع السابق، ص 28.

²⁷ المرجع السابق، ص 22.

²⁸ المرجع السابق، ص 23.